عن الشعر العربى

بقلم الدكتور يوليوس جرمانس
الاستاذ فى المعهد الشرقى بجامعة بودابست

— ٢ —

ان دوحة الأدب العربى أخذت تذبل أوراقها ولكنها لم تمت ، وحفظتها صلابتها — التى عاقت توجّهها نحو أدب الملحمة ، والقصة ، والمسرح ، والرواية — من الدمار المطلق . هذه الصلابة حفظت تقاليدها حية الى اليوم — متحجرةً قديمة ولكنها لاتزال تنبض بالحياة . هنا الطمى وهنا المِنحات ، وان اللغة العربية العجيبة لفى حاجة الى يد فنان ! فعندنا مجموعة من الشعر العربى تزخر بالأسماء : بعضها كبير وعظيم ، ولكن فى معجم علاه الغبار . وان الاوروبى ليقف حائراً أمام العظمة المندثرة ، على أن فى القرون الطويلة التى كان المجد فيها هو العزاء الوحيد فى الاضمحلال الحاضر أخذ الشعراء يرجعون بأبصارهم الى قمم شاهقة ، محاولين أن يصعدوها مقلدين . ولكنهم انما كانوا كالمسنّين الذين يتذكرون طفولتهم ويحنون اليها ، فتبدو عليهم مسحة الأطفال . وما أشدّ التنافر بين اللحى الشائبة ونشاط الأطفال ، وان مايبدو صادقاً وقوياً فى فم الشاب ، لايكون الا صراخاً فى فم أدرد لرجل هرم عاجز . ان فمه سيعيد نفس الكلمات ولكنه سيأثم ضد أول مبادىء الشعر : الاخلاص !

فقد كان الشاعر الجاهلى يتغنى بالرماح فيدعوها العوالى ، أو الصعّدة ، ويتغنى بالحراب فيدعوها الاسل أو الخطى أو السمر أو السمهريات أو الردينيات . فكل انسان كان يعلم أنها كانت تصنع من خيزران يرد من الهند من ميناء « الخط » فى البحرين —

التى كانت أهم مكان يصنع هاته الحراب ، ونسبة اليها عرفت « بالخطية » وكانت قناة الرمح تقوم بواسطة النار حتى تصير سمراء اللون ومن هنا جاء اسم « السُّمر » . أما سمهر فهو رجل ، وردينة فأمرأة من « الخط » كان كلاهما يصنع الحراب ويطلق عليها اسمه . وكلمة ردينى لاعلاقة لها بكلمة « ردن » أى غزل ولا بكلمة « مِردن » أى مغزل .

فالشعر العربى القديم مملوء بهذه الاشارات الى أسماء كهذه ، وباستعارات غريبة على القرن العشرين . إنه بمثابة خزانة لمعرفة متجمعة يعبر عنها بلغة دقيقة تسر آذان الذين يؤثرون التفاصيل على الجمال المشيد بأكمله ، الذين يفرحون بالدرة الواحدة لابجمال العقد بحاله .

ووقف تذوّق قراء العربية للأدب عند حد خاص ، وهذا الحد الخاص حفظ لنا نوعاً من الادب قد مات من قديم ومتع تطوّره ونموّه فى مَناحٍ جديدة .

فى الاقاصيص الاغريقية أن هرقل أراد أن يقتل انتيوس ، فرماه الى الارض عدة مرات ولكنه كان ابن الارض فاستمد قوته منها فرفعه هرقل الى الهواء وخنقه هناك .

وكذلك تهب الأم الأرض قوة وإلهاماً لكل فن مات بعد أن انفصل عنها ، وكذلك يجب أن يتعلق الأدب بكل مايحيط به كنبات ينمو منه . والفن والشعر ككل فن يجب أن يستمدّا مواضيعهما من التربة الوطنية ، ويجب أن يخلصا للحقيقة الراهنة التى تحيط بهما . فصبّ القوافى وتقليد الاوضاع القديمة التى فقدت أى معنى فى الوقت الحاضر انما هى وسائل باطلة ومؤدية الى السقوط ، فان رجل القرون الوسطى كان يسرّ بالجمال المعمارى للكنائس الغربية ، ويقسم بما أملته العقائد التى حفظها من القديسين بالأمر . ولكن رجل اليوم تهمه الحقائق ، وأخذ يفكر لنفسه . وأصبحت أوضاع الفن فى النقش والنحت والمعمار والموسيقى والادب حرة طليقة وأصبح المعنى يغلب على الشكل ، والغاية هى التى تعنينا .

بقيت نقطة واحدة : أيتبع الأدب العربى النماذج العربية أم الشرقية ؟

ليس الاسلام ثقافة شرقية وضعت ضد المسيحية ، فهدف كليهما الشرق ومنابعهما متشابهة . وجاء على الاسلام وقت لبس فيه بمدينة بغداد روحاً غربية أرسطاطاليسية أكثر من أوروبا نفسها . وردّ المسلمون بعد انهزامهم فى (طوروس) الى أفريقيا وآسيا حيث اضطرتهم ظروف اقليمية جغرافية الى بقاء التطور والنمو فى حدود ضيقة ، وإذن فقد حكم التاريخ على المسلمين بذلك كما أصبحت المسيحية غربية لنفس الدوافع .

الاسلام فى وسط أوروبا ـ لنفرض أن العرب قد نجحوا فى طريقهم الى الاستانة . إذن لكان الاسلام قد نما ومدّ كلّ قواه المستترة وساعدته الظروف الجغرافية ، وإذن لكان المسلمون قد أصبحوا أبطال الغرب بدل الاوربيين المسيحيين اليوم . وان تأخر حال الامم الاسلامية اليوم لاذنب للاسلام فيه — بل للتطور التاريخى والموقع الجغرافى . وتفوق الثقافة الاوربية ناشىء من الجرى وراء الحقائق ، والنظرة الموجبة للحياة ، والجهاد ضد التعصب للعقائد . ولا بدّ للشرق من أن يقفو خطاها اذا أراد أن يتحرر من قيود الماضى ، اذا أراد أن يحيا فى الحاضر . فليس الامر أمر الشرق والغرب ، ولكن أمر نظرة قديمة للحياة لا تتفق والمكتشفات الحاضرة للعلم وما أنتجه — هذا فى ناحية ، وفى الناحية الاخرى أمر التناسب فى الفن والتشريع مع الحاجات اليومية .

انا لا أحضّ على تقليد أعمى للنماذج الغربية . أنا أحضّ على الصدق فى الادب والاخلاص للحياة الحاضرة فى لغة طبيعية صافية . فليتنبه كتاب العربية الى درس المسائل المعقدة فى الحياة ، وليصوروا آلام الفلاح وآماله وافراحه ، ومشاكله الصغيرة وأوهامه وفشله . وليصوّروا حوارى القاهرة المظلمة حيث يذاكر الطلبة وليصفوا جمال « الحريم » حيث تحلم المرأة بالحظ وتذوى فى ألم . وكفانا ماكتب فى الماضى عن القمر والنجوم والفراشات ، وماكتب عن المجد القديم وانتهى الى هذه الحال المحزنة . لا بدّ للشعر العربى من أن يستيقظ من الماضى ليخلق حاضراً . دعنا من الكلمات الرنانة الجوفاء فان الحياة صارت تضيق بمثل هذا . دعنا ننظر الى المعنى الداخلى للحياة ونعبر عنه بكلمات بسيطة يفهمها التلميذ . وانى اؤكد ان الشعر العربى سيكون صيحة الميدان المبشرة بارتفاع للاسلام لانظيرَ له . واذا عجز الكتاب عن أن يحققوا آمال قراء العربية ومطامعهم ، فان هؤلاء سيلتفتون بالطبع الى الادب الغربى وينسون لغتهم .

ولقد اعتقدتُ من كتابات ابى شادى ان الجيل الجديد الذى يقوده هو يتبع مبادىء سليمة للشعر ، وأن حماسته وعبقريته لكفيلتان بأن يزجياه الى النصر .

سماسرة الأدب

اطّلعتُ على مقال فريدٍ للأديب المعروف عباس محمود العقاد حمل فيه حملةً مشروعةً على سماسرة الأدب ، وقداستهلّه ببشرى زفّها الى قرائه وهى نفاد الطبعة الأولى من ديوانه « وحى الأربعين » . فأمّا عن هذه البشرى فكلُّ أديب حرّ لابد أن يطرب لها ، إذ كيفما كانت نظرةُ الأدباء الى شعر العقاد فما لاجدال فيه أنّ أدب العقاد وأدب أقرانه أولَى بالدراسة من الكتابات البذيئة التى تُنسَب زوراً الى الأدب وقد شاعت فى مصر شيوعاً مخجلاً بل تخصصت لها بعضُ الصحف ولا حسيب ولا رقيب ، فى حين أن الأولى أن يُعهد الى وزارة المعارف باصدار الرخص للصحف والمجلات الأدبية ومراقبتها ، وأن يُترك لادارة الامن العام الاشراف على الصحف السياسية .

أقول إن الأدباء الذين لايرضيهم شعر العقاد وغير العقاد ويودّون استثناء هذا وذاك من زمرة الشعراء ينسون أنهم فى الواقع يسيئون الى الأدب الجدّى ، إذ لايستفيد من وراء هذه الخصومات غير أنصار الأدب الرخيص إن صح لنا أن نسميه أدباً .

ولكنى أخالف العقاد فى استنتاجه أنّ رواج ديوانه ـ على قلة المطبوع منه ـ دليلٌ على إقبال القراء على شعره الخاصة . فلولا أن العقاد صحفىٌّ معروفٌ ـ وقد استغلّ صحيفة « الجهاد » للترويج لديوانه ـ حتى بنشر الأمداح الخاصة التى لايعنى بنشرها أى أديبٍ مشهور — لما لاقى شيئاً من هذا الرواج الذى يبشرنا به ، خصوصاً فى ظروف الأزمة الحاضرة . وعلى هذا فلا بدّ لنا من الاعتراف بأن الاقبال على الأدب الجدّى ما يزال أمراً خياليّاً فى مصر ، ولا عبرة بنجاح العقاد ولا هيكل ولا المازنى ولا غيرهم من الأدباء المتصلين بالصحف المشهورة ، لأن لهم من طبيعة مراكزهم مايسهّل لهم وسائل الدعاية والترويج لمؤلفاتهم ، ولو غادروا هذه المراكز وحُرموا التقريظ والدعاية لما لاقوا غير الكساد المحقّق .

قلتُ إن حملة العقاد على سماسرة الادب حملةٌ مشروعةٌ لولا أنه مخطىء فى التطبيق ، إذ كان ينبغى له أن يبدأ بنفسه : فهو فى طليعة من تحكموا فى أقدار

الأدباء الممتازين وفى مقدمة من حملوا حملةً غير مشرفة على غير واحد من رجالنا البارزين بل على نفس أساتذته . وكان الأولى بالعقاد أن يوجّه حملته الى أصحاب الجرائد وبعض المحررين الذين يقصون عن الميدان الأدبى كثيرين من النابهين . أمّا وهو قد وجّهَ هذه الحملة الى مثل اسماعيل مظهر ومصطفى صادق الرافعى والى غيرهما من أعلامنا الذين كان لهم فضل مأثور على الأدب العربى لمّا كان العقاد نفسه نكرةً من النكرات فهو يعرض نفسه الى نفور الكثيرين من أهوائه العمياء .

يعجب العقاد من إحجام معظم الأدباء البارزين عن نقد كتبه، ولا أرى محلاً للعجب: لأن العقاد لا يرضيه ما هو أقل من التقديس ، واذا شاء أن ينصفه أىّ ناقد مستقل لم يكن جزاؤه غيرَ لطمةٍ منه ناسياً اطلاع ناقده وتدقيقه الى الجهل والتحامل! فالعقاد نفسه مسؤول عن هذه الحالة كما أنه مسؤول عن المقالات السخيفة التى تشيد بعبقريته « الجبارة » وبنحو ذلك من التهريج .

يدّعى العقاد أنه لم يتحايل على الشهرة . ولا أعرف تحايلاً أسوأ من التظاهر بالعظمة والايحاء بأساليب شتى لمن يلفون حوله للاشادة به واستغلال مركزه الصحفى لهذه الغاية . ويظهر أن هذا مرضٌ عند العقاد ظهرت علاماته الأولى منذ كانت تصدر جريدة « الرجاء » ، ولولا خصومته مع بعض الأدباء الذين كانوا يناصرونه ويحسنون الظنّ به ـ فلقوا من جحوده ما لقى كلُّ أديب آخر عاونه — لما عرفنا ما عرفنا من أساليب العقّاد العجيبة لاقتناص الشهرة مما يزّ كل وسيلة مقبولة أو غير مقبولة لجأ اليها أىّ أديب آخر ازاء تجاهل المجتمع أو جمود الرأى العام .

فليدعنا العقاد إذن من هذه المباهاة وليهذّب من أساليبه بدل لوم الادباء الذين ينفّرهم منه بأخلاقه . ليتورّعْ قليلاً قبل أن يهاجم رجلاً منقفاً عالى النفس مثل اسماعيل مظهر ، وقد كانت ولا تزال مجلته (العصور) من المراجع الثقافية الممتازة فى دور الكتب . فاسماعيل مظهر من الافذاذ الذين استوعبوا ما استوعبوا من أصول الفلسفة والنقد الادبى والاطلاع العام الغزير ، وقد ضحّى الكثير لخدمة آرائه الحرة ، والعقاد على أى حال فى منزلة تلميذٍ من تلاميذه . ثم ماذا نقول عن نقده للرافعى هذا النقد المسفّ ؟ أليس الواقع أن كلا من العقاد والرافعى قد سجّلا فى نقد نشيد شوقى العيوب الملحوظة عند عامة الناس ، وليس ما سجّلاه مما يؤبه له حتى

يباهى به أحدهما أو يدّعيه الآخر ؟ ومهما يكن من شيء فانه يؤسفني أن يجرد الرافعي العقاد من شاعريته وأن يجرد العقاد الرافعي من ألمعيته الأدبية واللغوية النادرة التي تؤهله للاستقلال بآرائه اللغوية . ولعلّ العقاد امتعض من أبيات الرافعي المنشورة في العدد الماضي من (أبولو) وقد حسبتُها كما حسبها غيري موجّهة الى العقاد . (تلقينا الأبيات المشار اليها من الرافعي منذ شهور ، ولا نعرف لها أيّ علاقة بالعقاد ، وانما عددناها مثالا للشعر الفكاهي . وقد تأخر نشرها بسبب ازدحام مواد المجلة . ونحن على كل حال ننزه صفحات هذه المجلة عن الطعن الجارح ، ولا تهمنا غير المناقشة الأدبية البريئة سواء كانت لنا أو علينا ـ المحرر) .

ومن أغرب ما يقوله العقاد عن اسماعيل مظهر ان مظهر يريد أن يتشبّه به ، ويستشهد على ذلك بمباحث طرقها مظهر وطرقها العقاد من قبل بل يستشهد بتشابه العناوين ! فهل العقاد يتشبه بالمازني لأنّ المازني سبقه بالبحث عن ابن الرومي ، وهل يتشبه بطه حسين لأنه سبق العقاد بالتعريف عن جيته ، وهل يتشبه بأبي شادي لأن أبا شادي سمّى ديواناً قديماً له « وحي العام » وجاءنا العقاد بوحي الأربعين ؟ أليس هذا من غرور « أبي العبس » وهل بعد هذا غرور ؟ وهل يفوت صاحبنا الذي يستشهد في مقال أدبي بما يقوله نكرة عنه في جريدة « الزمان » التونسية ويتهافت على ذلك أنّ كثيرين من ادبائنا البارزين يظفرون بأبلغ من هذا التقريظ ثم لا يعبأون باذاعته في مثل هذا المجال ؟

لقد قرأتُ ما نُشر في مجلة (أبولو) من النقد الفني لشعر العقاد ولسلوكه كناقد وأديب فلم أرَ فيه شيئاً من التحامل ، وإن خالفتُ بعض حضرات الكتاب في جانبٍ من استنتاجاتهم . والمطلع على أحدث التصانيف في نقد الشعر وموسيقيته (وفي مقدمتها كتاب تشارد پوَرْز ميت عن « المثال والتغير في الشعر » ورسالة لاسيل أركرمبي عن « الشعر : موسيقيته ومعناه ») فضلا عن المؤلفات الاصولية الذائعة ، لا يمكنه أن يدّعي أنّ النُّقاد الذين تناولوا « وحي الاربعين » خالفوا أصول النقد الأدبي النزيه في شيء .

وقد نسب الهمشريُّ وغيره الى العقاد تعمُّدَ النقل عن شعراء غربيين بارزين فرجعتُ الى النصوص المشار اليها فوجدتُ تشابهاً عظيماً في المعاني وأثراً جلياً للاستيحاء ، ولكني أستبعد كثيراً أن يكون العقاد قد تعمد ذلك ، وغاية ما يقال

أنه وقع فيما وقع فيه المازنى من قبل من تأثير مطالعاته ، وهو ما لا يسلم منه شاعر أو كاتب بدرجات متباينة . وأخشى أن فتح هذا الباب يؤدى الى مهاترة لانهاية لها خصوصاً والعقاد بارع فى المجادلة الصحفية إن لم أقل السفسطائية ، بدليل مناقشته الواهية فى عيوب فنية بارزة يلمحها كل ذى بصر فنى وذوق سليم .

وخلاصة رأيى أن العقاد مفكر قبل أن يكون شاعراً وجدانياً ، وهو رجل له خطره وفضله . ولولا طباعه الشاذة وغروره المتناهى لانتفع به الأدب انتفاعاً تاماً ، ولكن الغرض والانانية مما يفسد آراءه وأحكامه ، حتى أكاد لا أستطيع أن أقول باطمئنان اذا كان النفع من أدبه يفوق كثيراً الضرر من محاولاته الهدامة المغرضة . واذا كنا نرفض نزعته التحكمية فيجب أن نفرض كذلك تحكم خصومه الذين لا يريدون لشعر العقاد الظهور والذيوع . وهم لو استطاعوا ذلك ـ ولن يستطيعوه ـ فأىُّ جدوى تعود على الادب من حصر نماذج الشعر؟ وما الفائدة من وراء هذه الدكتاتورية التى نحارب بها دكتاتورية أخرى ؟ !

محمود الخولى

*****

شاعر يعلن اسلامه

بعد ألف سنة

(النابغة الشيبانى مسلم وليس بنصرانى)

ليس أشدّ على التاريخ ولا أوجع للحقيقة من الهفوة يهفوها العالم الكبير فلا تُعرف أنها هفوة بل تستقبل بالرحب والسعة فى صدور المجالس وبطون الحلقات وفواتح الكتب على انها حقيقة لا شك فيها ، ثم تتوارثها الاجيال ويسبغ عليها القدم ثوباً خادعاً من الجلال الكاذب تتراءى فيه كأنها بنت البحث وسليلة الدرس والتنقيب ، إذ على قدر شهرة العالم وبعد صوته يكون ذيوع ما يصدر عنه . بل ان هناك أمراً آخر لا ينبغى إغفاله وهو أن العادة قد جرت على احترام آراء العلماء

الكبار وعدم مناقشتها ومن هنا يكون الضرر أبلغ والشفاء أبطأ ، إذ لو أن القضية كانت صادرة من رجل خامل الذكر لكان فى الاذهان استعداد للشك فيها وان كانت حقاً ، فأما وهى صادرة من رجل محقق وعالم مبرز أومؤرخ جليل فلا موجب لاسلاف الشك وتقديم الحذر .

وقد يهفو المؤرخ الكبير فتكون هفوة التاريخ : ذلك أنه فلما كان علماء التاريخ فى الماضى ينقبون عما يكتبونه وانما كان همهم على الرواية والكتب ينقلون عنها ، والحقيقة التاريخية كانت دائماً موضع بحث ولكن قل من ملأ يده منها ، ذلك أننا

محمد خالد

نشاهد فى عصرنا الحاضر — على ما نحن فيه من حضارة — الحادثة الواحدة يرويها عدد من الرواة وفى كل رواية مخالفة ظاهرة للأخرى فكيف بالماضى وقد كانت وسائل الانتقال بطيئة وأداة نشر العلم محدودة !

أسلفنا هذه المقدمة بين يدى الموضوع الذى أردنا نشره نعتذر عن هفوة التاريخ أو على التحقيق من هفوة الأديب الأكبر — بل فخر اللغة العربية الامام ابى الفرج الاصفهانى مؤلف «الأغانى» — فى حق الشاعر الفحل النابغة الشيبانى . أما هذه الهفوة فهى زعم أبى الفرج أن النابغة كان نصرانياً حيث يقول فى صدر ترجمته له : « وكان فيما أرى نصرانياً لانى وجدته فى شعره يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالايمان التى يحلف بها النصارى » . وقد أثر ابو الفرج فيمن جاء بعده من مؤرخى الآداب

العربية فعدّوا هذا الشاعر نصرانياً تأثراً بما رواه ابو الفرج ، وهكذا غلط التاريخ مع النابغة طوال هذه الحقب وأخرجه عن دينه فى الكتب ألف سنة أو تزيد !

وانى لأحمد الله أن وفقنى الى اصلاح هذا الخطأ التاريخى فقد كنتُ فى أوائل مارس أتصفح ديوان النابغة الذى طبعته دار الكتب الملكية فأحسنت طبعه وأجادت ضبطه وقد رأيت الدار أثبتت ترجمة صاحب « الاغانى » للشاعر فى أول الديوان وفيها يقول عن النابغة ما أسلفنا ذكره، ثم مررتُ بالديوان مروراً خفيفاً فادركت لأول وهلة أن النابغة مسلم وليس بنصرانى بل انه يعلن اسلامه من فوق مأذنة فى كل قصيدة ينشدها ، وليس هذا من قبيل الاستنتاج أو التوليد بل ان لفظ « الاسلام » جاء فى مواضع أخرى وقائع حال لا تصدر الا عن مسلم ولا يتشبه بها نصرانىّ مهما كانت مرونته ومطاوعته للظروف .

وانى أشرك القراء معى فى هذا الحكم فأنقل لهم بعض الشواهد ثم أحيلهم على الديوان ليتتبعوا سائر قصائده فهى حافلة بالامثلة والبراهين .

جاء فى صفحة ١٧ :

وتعجبنى اللذاتُ ثم يعوجنى ... ويسترنى عنها من الله ساترُ
ويزجرنى الاسلامُ والشيبُ والتقى ... وفى الشيب والاسلام للمرء زاجرُ

وفى الصفحة ٥٢ يصف الشاعر حصار مسلمة بن عبد الملك لمدينة « طرنده » ويقول بلسان المسلمين :

تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحية[١] ... والله يعلم ما تخفى الشراسيفُ[٢]
قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا ... فصخرها عن جديد الارض منسوفُ
كانت اذا قام أهل الدين فابتهلوا ... باتت تجاوبنا فيها الاساقيفُ[٣]
فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة ... وصادقٌ من كتاب الله معروفُ

وفى صفحة ٢٢ يقول :

ولولا الله ليس له شريك ... إلهُ الناس ذو ملكٍ وعرش
لباركنى من الخرطوم[٤] كأس ... تكاد سؤور نفحتها تُنشّى

(١) ظاهرة (٢) جمع شرسوف وهو غضروف معلق فى اعلى كل ضلع (٣) جمع اسقف (٤) الخمر

فأنت تراه فى الشاهد الاول قد جاهر بالاسلام وتحصن به من اللذات ، وفى الشاهد الثانى تبصره مجاهداً كبيراً فى سبيل الله ، وفى الشاهد الثالث ينفى الشرك بالله ، وهذه هى أخصّ خصائص الاسلام وأظهر مظاهره ولا سبيل لاحد بعد ذلك أن يتشكك أو يمين .

« • »

بعدهذا نعود الى صاحب «الأغانى» فنعتذر عنه من هذه الهفوة بذلك العمل العظيم الخالد : عمله فى تأليف كتابه « الاغانى » واحيائه آداب اللغة وفنونها فيه . وانى لاقرر من غير حذر أو تردّد ان كتاب « الاغانى» هوالكتاب الذى حفظ على اللغه آدابها ووعى لها شعرها ، ولولاه لجهلنا اسماء كثيرين من الشعراء بله شعرهم .

والذى أرجحه هو أن أبا الفرج لم تقع له نسخة كاملة من ديوان النابغة والا لما عزّ عليه أن يستدرك هذا الخطأ اليسير فهمه .

بقى أن أبا الفرج يقول إن النابغة يحلف بالانجيل والرهبان . وقد تصفحتُ الديوان فوجدت هـذا الحلف قليلا جداً فى شعره ولم أر لفظ الانجيل الا فى مكان واحد ولعله الذى رآه ابو الفرج ، على ان الشاعرلم يورد الحلف ارتجالا وانما حكايةً عن غيره من الرهبان المتبتلين على عادة كثير من الشعراء حينما يريدون تأكيد شىء واقراره ، وعلى أى حال فان حلف المسلم بالانجيل والتوراة وغيرهما من الكتب السماوية لايتجافى مع عقيدته الدينية فان الاسلام يقرّ هذه الكتب ويأخذ أهله بالايمان بها ؟

محمد خالد

الشـــاعر المستحجر

هاجنى عباس افندى محمود العقاد فى الصفحة الادبية التى يكتبها بجريدة (الجهاد) من غير أن أعرف لأىّ شىء هاجنى ولا اية حاجة فى نفسه أراد ان يقضى بها أسفٌ فيه من بائر القول وظاهر العنت والسخيمة التى ظهرت بين سطوره . ولقد تساءل الأدباء لماذا يهاجنى العقاد فلم يجدوا ولم أجد من سببٍ ظاهرٍ الا أنّ العقاد ،

كما يقول اديبنا الكبير مصطفى صادق الرافعى ، هو العقاد ! ولا حيلة فيما لا حيلة للناس فيه ، الا فيما شاءت الاقدار أن تطوى فى نفس العقاد من صفات تظهر الانسانية فى الصورة التى يمثلها العقاد فى هذا الزمن عظةً وذكرى ، لتذكر الناس بما فيهم من أصل حيوانى وجبلة وحشية ، كأن تقول لهم : أيها الناس — اذا نسيتم اصولكم الوحشية ، فها دونكم من أخلاق استاذ حروف المطبعة من بنط ٣٦ « العقاد » وصفاته مثلاً حياً عليها ، ما يمنعه عن أن يكون ما كانت أصولكم فى الغابات والكهوف الا القانون والا حبل الجلاد والا المقصلة !

فلقد تطاول واستعظم وشمخ بأنفه الى السماء عزة بالاثم . فلما تناوله القانون أخذ يتذلل وأخذ يتنصل مما كتب وأخذ يبكى خلال المحاكمة ، وحط أنفه فى الرغام ، ومضى يهذى كمن أصابهم الهلاس ويصيح : أريد شمساً ، أريد ضوءاً ، أريد وأريد ، حتى لقد أخذت الناس عليه الشفقة وقالوا مسكين زلت به القدم وخانته العبارة ، فليرحمه القضاة يرحمهم الله ! ولكن القانون لايعرف الرحمة الا مع الراحمين ، كما انه لايعرف مع المتعاظمين بغير عظمة ، المتجاهين بغير جاه ، الا العدل فى جبروته وقوته .

هذه صورة أولى من العقاد . أما الصورة الثانية فاليكها : كتب أحد أدبائنا منبهاً فى مجلة (أبولو) على بعض سرقات العقاد من الشعراء الغربيين ، فانكمش العقاد وصغر وتضاءل وأخذ يزجى الى ذلك الأديب الرسول بعد الرسول ليتفاهم وإياه على ان يرحم ضعف العقاد وان يستر الفضيحة ، وان الله كما يقول عجائز القرى حليم ستار !

وهذه صورة ثانية من العقاد . وأما الصورة الثالثة فانا لانبخل بها : فانك اذا رأيت ضعف العقاد فى الصورة الثانية فانك ولا شك تنكره فى احدى المكاتب وقد سأله أديب فى كثير من الأدب الجم رأيه فى شىء يغضب العقاد ان يقول فيه رأياً ، صحيحاً أو غير صحيح . وكيف لا تنكره وهو يتطاول على ذلك الأديب ارتجالاً وللاشىء ويتنقصه والأدباء بأسفه العبارات ويقول فى ناشئة الأدب انهم فقاقيع وانهم حثالة الزمن وثمالة الكأس التى زهدت فيها الاقدار ! وبمقدار هذا يكون الفرق بين العقاد اذا قد ، فانه لايعفو . اما اذا أسر وصرت عليه رجل الغراب كما يقول المثل العربى ، فانه ينكمش ويتماوت كالثعالب ، وتندك قامته المديدة حتى تصير بضعة أشبار ، وهى على ماعهدت تشرف على النخلة السحوق .

هذه هى الصورة الثالثة . أما الصورة الرابعة فيصورها لك العقاد متهجماً على

الزعيم الاكبر المغفورله سعد باشا . واذا كنت لاتعرف كيف تهجم وكيف تطاول فاعرف أن بعض أعضاء الوفد إبّان تكوينه قد أخذ على رئيس تحرير «الاهرام» انه يفرغ عليهم من الالقاب ما لا يجب ان يفرغ على غير الرئيس احتراماً لشخصه واجلالا له فى المكانة التى تليق برئيس الهيأة التى تسعى فى سبيل استقلال البلاد . وكان العقاد محرراً فى «الاهرام» يهذب رسائل الاقاليم. ولقد أفضى اعضاء الوفد بما أرادوا امام العقاد وكان يتلقى الاوامر اليومية من رئيس التحرير ، فانفجر انفجار البركان يرمى سعد بما رمى به كلّ عظيم فى مصر . واذكر من الاعضاء الذين سمعوا كلامه احمد لطفى السيد بك وعبد العزيز فهمى باشا والمرحوم المكباتى بك على ماروى لى رئيس تحرير « الاهرام » . وممن كانوا فى الحجرة ثلاثة أحياء يرزقون وواحد حىّ لا يرزق الا من جرائد الوفد وهو العقاد !

واليك الصورة الخامسة . فان هذا الحى الذي لا يرزق الا من جرائد الوفد ، وينادى كل يوم على صفحاتها إفكاً «بالاستقلال التام أو الموت الزؤام» يروّج سراً فى مجالسه الخاصة بان المصريين خيرلهم أن يقبلوا من الانجليز نظام الدمينيون على أن تترك انجلترا للمصريين الحرية الكاملة فى تكييف شكل الحكومة ، كأن تكون جمهورية مثلا ، ومثلا فقط . كلا ! استغفرالله ! بل انه يناقش فى هذا أدباء معروفين وقد نقل الىّ هذا الحديث سلامة موسى ، وهو رجل مستقيم الفكر حرّ الرأي يقول ما يعنى ويعنى مايقول .

وانتم فى جميع هذه الصور لاترون العقاد الحقيقى : ترون فى احدها العقاد الحانق المتألم ، وفى الثانية العقاد الضعيف المستكين ، وفى الثالثة العقاد الشتّام السباب ، وفى الرابعة العقاد المتهوّر المفرط ، وفى الخامسة العقاد المقنع ـ العقاد الدومينيونى عليه من النفاق السلام !

وانى لأريد أن أصور لكم العقاد فى صورة سادسة : فانه وهذه حاله لايتورع عن ان يرمى الناس بان « منهم من يمشى مع الحسد والضغينة ، فكلما امتلأ قلبه باكبار انسان اشتد ضغنه عليه واشتدت رغبته فى تنقصه والاساءة اليه» . وهو بهذا انما يعبر عما فى نفسه للناس من حنق وحفيظة . والآن فليتفضل وليقل لماذا هاجمنى ولاىّ سبب اخذينتقضنى من غير ان أتعرض له بمدح أو بذم ؟ ! وأقول مدحاً لانّ من الذين مدحوا العقاد وأكبروه وأعانوه على أن يكون شيئاً مذكوراً ، من ناله العقاد أكثر مما نالنى منه ارتجالا وسخيمة ، مع انى ولله الحمد لم أرتكب جريمة

ان أبنى فى العقاد لبنة واحدة ، والاّ لانقضت هذه اللبنة على أم رأسى ، كما انقضت كل لبنة وضعها اديب فى اساس العقاد على رأسه ، فتركت اثراً قائماً على ان الشاعر القديم لم يعن بقوله :

خلقت على ما فىّ غير مخير هواى ، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى واعطى ولم أرد وامسى وما أعقبتُ الاّ التعجبا !

الا من كان العقاد أو من هو على شاكلته ممن ترسل بهم الاقدار بين فترات الزمان ليقيس الناس عليهم الفارق بين الانسانية فى صورتين : احداها يمثلها العقاد والاخرى يمثلها سقراط الفيلسوف .

واى شىء تذكر للعقاد من أدب النفس أو صفاء الفكر ؟ أقوله فى احمد لطفى السيد بك الذى يملأ قلبنا احترامه بانه « الفيلسوف العجر » ؟ أم وصفه الاستاذ محمد حسين هيكل بك وهو احد كبار رجال صحافتنا واحد عمد الادب الحديث بانه « الغر المصطول » ؟ أم قوله فى صاحب الدولة محمد محمود باشا وهو احد كبار رجال الدولة بانه « الاحمق المغرور » ؟ فاى شى يجب ان يُسْتَقَى العقاد سوى السمّ الذى يسقى الناس ؟ وكأنه بما تعلم وبما عرف من اشياء أشبه بأفعى سقيت سماً ، لتزداد شرتها وتقوى عُدَّتها على فعل الشر !

ولقد استشرى العقاد حتى خيل اليه ان أقدار الناس واعراضهم حرم مباح ، وكبر فى نفسه الغرور حتى لقد ظن بان تعفف الناس عن ايذائه بمثل ما يؤذيهم به ليس عن فضل ولا عن أدب ، ولكن عن خوف من عظمته كما يدعى ، فى حين ان الحقيقة انهم يدارون بذاءته كما يعرف كل الناس . وان البغاث ليستنسر فى قفر أجرد ، وان حبة البر لتطغى ، ولكن قبل أن تدور عليها الرحى وتهشمها أو تتركها هباء بدداً !

وما كنت لاكتب فى العقاد شيئاً ، لولا أنّ احد الاصدقاء قد نبهنى الى شىء غاب عن ذاكرتى . فقد نشرت فى عدد مارس من مجلة (أبولو) مقالا تحت عنوان « أدكتاتورية فى الأدب » نقدت فيها الدكتاتوريات الأدبية وقلت إن هذه الدكتاتوريات من أخطر ما يتعرض له الأدب فى أمة من الامم من الاحداث الجسام لانه يغمر الناشئين ، ويغوى الكبار ويزيدهم غروراً فنفقد بذلك الأدب والأدباء . وضربت أمثالا بدكتاتورية صموئيل جونسون فى انجلترا ، ودكتاتورية فولتير فى

فرنسا ، وقلت إن دكتاتوريات هؤلاء إن كانت عن جدارة فانها نعيت على الادب الانجليزى والادب الفرنسى ، فما بالك بدكتاتوريات قديحدثها من يجدربنا ان نسميهم « ادباء الوضع » واخذت أرسم صوراً تعريفية لادباء الوضع ، والظاهر ان احدى هذه الصور العامة قد لبست العقاد ، وجاءت متصلة على قدر غروره وعلى قدر ما فى نفسه من دعوى ، فكان أن هاجنى من غير ان يمر العقاد بخاطرى ! واليك تلك الصورة .

جاء فى مجلة (ابولو) ص ٧٩١ فى العدد السابع :

« وتجد الآخر (هذا بعد أن وصفت صورة أولى من أدباء الوضع) وقد تبدل من معجم جونسون وتراجمه ومن مجلدات فولتير وعلمه ، جلسة يكعو فيها على احد جنبيه ، وصوتاً يخرج من اعماق الصدر تعملا لا فطرة ، وكبراً يأخذ به الصبية الذين يحاول ان يتخذ منهم بطانة وشيعة يستخدمها فى الاعلان عن ذاته الشريفة وعن أدبه الجم وعن فلسفته الادبيّة ورسالته التى أداها لاهل هذا الجيل التعيس، فى حين ان غاندى يشفق على نفسه ان يقال فيه انه صاحب رساله أُديت لاهل هذا الجيل» .

ولقد تخيلت هذه الصورة تخيلا . لانى لم يضمنى والعقاد مجلس ابداً ، اللهم الا هنات من ايماءة فى شارع أو دقائق فى مكتبة . ومن الغريب ان يشعر العقاد ان هذه الصورة تلابسه فيحنق ويرتفع صدره ويهبط غيظاً ثم يهاجنى فى «الجهاد» ارتجالا ومن غير أن يذكر سبباً . إذن فمن ذا الذى أعلمه أن هذا الثوب مفصل على قدر حقيقته ؟ ومن ذا الذى أشعره بانها مُدْيَة ؟ انه انما ينم بذلك عن أنه أحد «أدباء الوضع» والحمد لله إذ اهتدينا الى أحد أعضاء « عصبة الوضع » ، كالمجرم الذى يوثق نفسه ويتقدم طائعاً للاتهام ! وهذه عندى أولى حسنات العقاد نسجلها له فى كثير من الغبطة ، لأن أقل ما فيها فى الدلالة يبشر بانه سوف ينفع فيه التهذيب .

ولعله قد تخيل انى لم أنقد شعره قصوراً . غير انى امسكت عن شعر العقاد عن عقيدة : وعقيدتى الراسخة هى انه مستحجر ـ شأنه فى الشعر شأن بقايا الحيوانات البائدة التى تطمر فى جوف الارض ويبدلها التفاعل الطبيعى من الحالة العضوية الى الحالة المعدنية ، فاذا استحجرت سماها علماء البلنتولوجيا بالحفريات ، فما تدل الآعلى ان فى عصر من العصور الجيولوجية قد عاش حيوان هذه بعض صفاته أو هذه صفاته . وشأن العقاد فى الشعر شأن هذه الحيوانات وشعره كبقاياها : وانت ما حيلتك فى

بقايا مستحجرة ؟ أتستطيع أن تهذبها لتكون شيئاً آخر ؟ وما ينفعك نقدك لما ارادت الطبيعة ان تكون عليه هذه البقايا ؟ فالبائد بائد ، والعقاد بائد كشاعر .

واذا أردت المثال فخذ قوله :

أرى فى جلال الموت إن كان صادقاً جلالةَ حقّ لا جلالةَ باطلِ

أرأيت اذن كيف يكون الاستحجار ! فان الموت اذا اشترط أن يكون صادقاً فالاحتمال الآخر قطعاً ان يكون هنالك موت كاذب ؟ ثم هل رأيت التواء الفكر وتعقد النظر ؟ !

وديوانه الاخير « وحى الاربعين » اى وحى أعوام طويلة قضاها العقاد يعالج الشعر ويصانعه لعله يسلسل قياده ، فاذا به بعد هذه السنين المديدة لا يعرف بحور الشعر ويخلط تخليطاً كما جاء فى نقد الرافعى لديوانه . فقد جاء فى ذلك النقد ما يلى :

« وفى ص ١١٥ (الجسم الضاحك) .

ثغرك الضاحك ، لا بل وجهـ لك الضاحك ، لا بل كل جسمك
لا بل الدنيا التى تو . . . . . مض نوراً حول نجمك »

قال الرافعى : « فهذا النظم من العروض الثانية من الرَّمل ووزنه :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

ولكن البيت الأول وزنه هكذا :

فاعلاتن فاعلاتن فاعـ ـلاتن فاعلاتن فاعلاتن »

قال الراوى : « فلما بلغ الرافعى من نقد العقاد هذا المبلغ أشفق على العقاد ان يسقط مغمياً عليه وتدور به الدنيا فأمسك عن أن يزيده من هذا ! » على ان نقد الرافعى لم يزدنى الا اعتقاداً بأن العقاد شاعر مستحجر ، وما قام عندى دليل على استحجاره بقدر ما أقام « وحى الاربعين » . ولعل العقاد يعرف بحور الشعر بعد أن يبلغ أرذل العمر بادن الله

واذا أردت دليلا آخر فاقرأ قوله :

تنشقتُ من فِيكَ عطر الثما ر أو نكهة العنبِ الناضج
فلو قلت أطعمتنى قبلة لانبأت عن صدق الطازج !

وتصور أيها القارىء شخصاً واقفاً بعرض الطريق يحرك ضبتيه ويلوك بين أسنانه شيئاً ويطيل المضغ حتى يسيل لعابه ، فاذا حملك حب الاستطلاع على أن تسأله: ماذا تمضغ ؟ أجابك انى انما امضغ قبلة «تنشقتها» من فم حبيب خيل الىّ أنّ فيها عطر الثمار ونكهة العنب الناضج فاوسعنى الآن ألوكها وأمعن فيها مضغاً ولوكاً حتى يسيل لعابى على صدرى . ولا يتبادر اليك انى أسخر منك فانى انما اعبر لك بهذا عن صدق طازج لم يفسد ولم ينغل بالزمن بل هو من خيالى الفياض الذى يفيض بالمعانى الجديدة غير معوق عن الجريان !

اذا وقع لك مثل هذا فايّ المعانى يتصل بفكرك لاول وهلة؟ هل يتصل بفكرك من معنى الا أن هذا الرجل معتوه ؟ !

ثم تخيل رجلا يذهب الى حبيبه ويميل اليه فى دلال ويقول : أطعمنى قبلة يا حبيبى ! فهل لهذا الحبيب ـ إن لم يكن معتوهاً مثل محبه ـ الا احد طريقين : فاما الكرباج ، وإما الفرار حذر ان يصيبه من جنون محبه « حادث مكدر » ؟!

قال الراوى : فاردتُ أن أعرف ما شأن هذا الرجل الذى يلوك القبل ويمضغها بعد أن يتنشقها من فم الحبيب حتى يسيل لعابه ، فسألته : مَن تكون أيها الانسان؟ فنظر شطر السماء مولياً بوجهه عنى أنفةً ـ وهذا شأنه ـ وقال : ألستَ تعرفنى ؟ أنا العقاد الشاعر الفحل والفيلسوف الأكبر صاحب أسمى رسالة أديت لاهل هذا الجيل والظاهر أنك لا تفهم شعرى... إذن فكن على يقين من أنك سوف لا تفهم منه الكثير ولا القليل لانك ضعيف العقل مغرور مصطول ! على أنك اذا اردت ان تفهم منه شيئاً فاجعل حبيبك يطعمك القبل وقف بعرض الطريق وامعن فيها مضغاً حتى يسيل لعابك !

أليس هذا أثر من الآثار التى يتركها بيت العقاد فى خيال مَن يريد أن يستوعبه؟ وهل دليل على الاستحجار أبلغ من هذا ؟ ! والواقع ان العقاد أراد ان يتخذ من الشعر صناعة فلم تسلس له . غير أننا على الرغم من هذه العقيدة سنعود الى شعر العقاد لنعرّفه كيف يكون نقد الشعر .

وقد يخطىء الشعراء جم الخطأ إذ يطيرون مع الخيال وحده أو يستسلمون للعاطفة وحدها وليس لهذا الخطأ الا أن ينتج أحد أمرين : إما ضعفاً فى الصناعة ، وإما تهويشاً فى المعنى . فاذا اراد الشاعر ان يتقى هذين فعليه أن يلاحظ أمرين :

الاول — الأثر الذى يتركه شعره فى نفس قارئه والصورة التى يطبعها فى مخيلته. فاذا تخيل شاعر نفسه واقفاً على شاطىء غدير يتسمع للاصوات ولما تناجيه به الطبيعة من لغتها الخية ثم صاغ شعره الذى يصوّر به هذه الحالة فقال : وكنت أرهف أذنى للسمع حيناً وأرخيهما حيناً آخر. فأىّ صورة تنطبع فى ذهنك توّاً الاصورة بهيمة ترفع أذنيها حيناً وترخيهما حيناً آخر تستجمع الاصوات وتستكشف ماحولها؟! وانها لتكون صورة فاسدة حتى ولو تخيلت غزالا اولكن ماذا عليك لو تخيلت حماراً أو بغلا ؟ فانت حر ما دام الامر محصوراً فى اذنين ترهفان ثم ترتخيان ! واى شىء أطول من الحمار أذناً ؟!

الثانى — ان يلاحظ الشاعر فى المعنى ما يشترك معه فى الافكار، ولاشتراك الافكار (association of thoughts) شأن كبير فى الشعر ، وهو بحث نفسىّ عميق سوف نوفيه حقه من الدرس بعد . ولا بأس من أن نمضى فى شرحه باختصار : فانك اذا قلت « نهراً » اشتركت مع فكرة النّهر كلّ ما يتصل به — فتتخيل الشجر والماء والانسياب والحيوانات والظلال وما الى ذلك لما تجرّ فكرة النّهر أو صورة النهر من الصور الاخرى . فاذا سمعت مثلاً قول العقاد :

تنشّقتُ من فيك عطر الثما ر أو نكهة العنب الناضج
فلو قلت أطعمتنى قبلة لانبأت عن صدق الطازج

فأية صور تشترك فى مخيلتك مع هذه الالفاظ ؟ فان « تنشقت » تجر الى ذهنك توّاً علبة السعوط والتنشق والمنديل الاحمر يخرجه شيخ معمم من جيب قفطان بلدى ويضعه على أنفه ويتمخط بعد أن يعطس . و« أطعمتنى قبلة » تجر الى فكرك المضغ وتحريك الضبنين واللوك حتى يسيل لعابك . وهذا ما أريد أن أنبه اليه شعراءنا الناشئين والذين نرجو منهم الخير العميم للادب واللغة . أما العقاد الشاعر المستحجر فسوف يقول: ما هو « اشتراك الافكار » ؟ لقد قال به كل علماء النفس . ولكن ليعلم العقاد ان العبرة هنا بالتطبيق ، وسوف اكون أول من يطبق هذا المبدأ النفسىّ باسلوب علمى على نقد الشعر ، وستسجله لى (أبولو) فعله لايتبجح بعد هذا ولا يتهمنى بأنى أريد ان اكون العقاد والعياذ بالله . على انى سأبدأ فى عدد (أبولو) المقبل بشرح هذا المذهب التطبيقى الجديد فى نقد الشعر وأتناول فى أول ما أتناول شعر العقاد ، ويرحمه الله !

اسماعيل مظهر

توارد الخواطر

ورد ذكر عباس محمود العقاد في العدد السابع من (أبولو) فذكر الهمشري أن قصيدة العقاد (غزل فلسفي) مقتبسة من قصيدة شلي (ابيسكديون) وقصيدة العقاد في وصف طلول طيبة هي من قصيدة تيوفيل (معبد الاقصر) ، وقد ذكر الدكتور أبوشادي أن هناك توارد خاطر بين العقاد وعبد الرحمن شكري وأن قصيدة (ضلال الخلود) تذكره بقصيد شكري عن (الشاعر البابلي) .

وذكر عبد الحميد شكري في العدد السابع أيضاً أن قصيدة العقاد (الهداية) مأخوذة من قصيدة توماس هاردي (الى النجوم) ، وأن فكرة العقاد في تشبيه الدنيا بالخان مأخوذة من قصيدة هاردي (الفجر الجديد) .

وأحب أن أذكر للقارىء شيئاً من توارد الخاطر الذي يحدث للعقاد لعله يجد فيه تسلية لغرابته .

قال العقاد في صفحة ٢١٣ من ديوانه :

يا ليت لي ألفَ قلبٍ تغنيك عن كلِّ قلبِ
وليت لي ألفَ عينٍ تراك من كلِّ صوبِ

وهما منظور فيهما الى قول شكري في الجزء السابع من ديوانه في قصيدة (آية الحسن) :

قد صار لي ألفُ عينٍ بعد رؤيتكم من بعد ما كان لي كالناس عيناني
وصار لي ألفُ قلب أرتجيك بها ياليتني زدت في روحٍ وأشجاني

وقال العقاد (ص ٢٢١) :

لبيك يا بحرُ من داعٍ نطوفُ به ظمأى فنروى ولم تعذبْ مساقيهِ

وهي من وحي شكري في قوله :

إن لم أنل منه ما أروى الغليل به قد يحمد المرء ماءً ليس يرويهِ

وقال العقاد (ص ٢٢٤) :

ما للمحبِّ سوى قضاءِ واحدٍ ثغرُ الحبيب له المقرّ النافي

عبد الحميد بدوي

أتراك تخفل كلّ شارق غيهبٍ هبط القضاء به الى الاسدافِ
انّ القضاء لما يهمك وقعه فيمن تحبّ من الورى وتجافى
وأنا المعانق للقضاء بأسره فى جسم أغيد كالندى شفّافِ !

وهى أيضاً من وحى شكرى فى الجزء الرابع من ديوانه (ص ٢٦) :

إن راقب الناس فى الافلاك طالعهم فان عينيك لى سحرٌ وتبيانُ
وان طرفَكَ نجمُ الحظّ أرقبُه سعدٌ ونحسٌ واحسانٌ وحرمانُ

وقال العقاد من نفس القصيدة :

لو كان حظك من جمالك حظنا أوجفتَ تطلب صحبتى إيجافى
أو كانت الدنيا تروقك بعض ما راقت بحسنك كنت خيرَ مصافى

وهى من قول شكرى فى الجزء السابع من ديوانه (ص ١١) :

خير لنفسك أن لم تدر ماضمنتْ من فتنة الخلق فى حسنٍ واحسانِ
اذاً لافرطتَ من سكر ومن خبَلٍ ورحتَ تنعم فى ظلمٍ وعدوانِ

ومن قوله فى الجزء ٧ (ص ٢١) :

ومن العدل ان يحب صبيحٌ حسنَه كى يكونَ جدّ رحيمِ

ومن قوله :

ولو كنت تدرى كنه حسنك كله غدرت ولم يعنف عليك رقيبُ
وعربدتَ من سُكرِ الجمال ، وإنه لسكرٌ اذا فكرت فيه يطيبُ !

ويقول العقاد فى نفس قصيدته :

هى حجة القدر العزيز على امرئٍ يرميه حين يثور بالاجحافِ

وقد قال شكرى :

وكيف أجحد هذا الكون خالقه وفيك لله آياتٌ وبرهانُ ؟!

وقال العقاد (ص ٢٥٥) :

وحيّانا بزهر من رباها فيا للورد يهدى الياسمينا !

وهو من قول خليل مطران :

زانت الرأس بفلّ هو بالرأس تحلّى
مارأت قبلك عينى وردةً تحمل فلاّ

ومن أغرب ماحدث من توارد الخاطر للعقاد قصيدته الموسومة « نبئينى» ص ٣١٦ :

لست أهواك للجمال وإن كا ن جميلا ذاك المحيا العفوف
لست أهواك للذكاء وإن كا ن ذكاء يذكى النهى ويشوف
لست أهواك للدلال وإن كا ن ظريفاً يصبو اليه الظريف
لست أهواك للخصال وإن د فّ علينا منهنّ ظلّ وريف
أنا أهواك « أنت » ، « أنت » ، فلا شيء سوى « أنت» بالفؤاد يطيف

فان هـذه قطعة من قصيدة المرحوم طانيوس عبده الشهيرة التى كانت تغنى فى المجالس :

أتيتُ فألفيتها ساهرهْ وقد حملتْ رأسَها باليدينْ

وقد نشرت فى ديوان طانيوس عبده المطبوع حديثاً ولكنها منبتة أيضاً فى كتاب « مختارات الزهور » تصنيف أنطون الجميل بك وهو مطبوع قبل ديوان العقاد بسنين ، وفى هذه القصيدة يقول طانيوس عبده :

أحبّك لا لجمالٍ وُصِفْ فكان السبيل الى كل عجبْ
ولا لكمالٍ به تتصفْ صفاتك فى كلّ صوب وحدبْ
ولا لذكاء عجيب عُرِفْ فكان الرسولَ الى كلّ قلبْ
ولكنّ هذا الفؤاد افتتنْ (بأنتِ) و (أنت) المنى والمرامْ
وكلّ الذى فيك حلوٌ حسنْ وكلّ الذى فى فؤادى غرامْ

ومن أغرب ما يذكر فى باب « توارد الخاطر » قصيدة للعقاد (ص ٢٧١) ليس بين أبياتها رابطة ووحدة فهى مجموعة أبيات لم يخرج منها بيت واحد عن ديوان عبد الرحمن شكرى ، وكاتب هذا المقال يعتقد أن عبد الرحمن شكرى أعظم شاعر عاطفى كتب بالعربية فى هذا الوجود الفانى .

قال العقاد :

وأبعث فيه الشعر لو قد بعثته على صخـرة ردّت علىّ ندائى

وهى من قول شكرى :

وهل تنفع النجوى وقلبك صخرة ؟ ألا خابت النجوى لدى كل صخرة !

وقال العقاد :

ولو كافأ البغض الضرار لاضمرت عداءك نفسى قبل كل عداء

وهى من قول شكرى (جزء ٧ ص ١٠) :

انى أهابك من حسن تجور به حتى لأقلاك فى اثناء أحيان

ومن قوله (جزء ٧ ص ٣٢) :

لو كنت شاهد عبرتى وصبابتى لمّا رمت بصدك المتمادى

لعلمت انك بالسلو وبالقلى أحجى ، ولكن لا يطيع فؤادى

وقال العقاد :

ألا ليت لى ياطلعة النور أعيناً عداد نجوم فى السماء وضاء

أراك بها شبع الجوانح رؤية وأوفيك حق الحسن كل وفاء

وهى من قول شكرى (جزء ٧ ص ٩) المشار اليه سابقاً :

قد صار لى ألف عين بعد رؤيتكم من بعد ما كان لى كالناس عينان

كى لا يضيع جمال منك أبصره ورقة اللفظ فى سحر وتبيان

بل ليتنى الكون طراً ليس يبصركم سواى فى الخلق من وحش وانسان

وقال العقاد :

وما خسر الدنيا ولا الدهر شاعر تبدله طراً بيوم صفاء

وهو من قول شكرى (جزء ٧ ، ص ٤٥) :

وعطفك عندى نهزة لا ينالها الى أبد الآباد إسعاد خاسر

ومن توارد الخاطر فكرة المجوس وهى فكرة غير قريبة ولا شائعة . قال العقاد :

ويا ليت لى سحر المجوس لعله معين على اسر القضاء ذكائى

ولشكرى اكثار من ذكر المجوس وولع بالفكرة . قال (جزء ٧ ، ص ٣١) :

طرف تألق منك حتى خلته قبس المجوس يضىء للعبّاد !

وقال (جزء ٥ ص ١٧) :

فان ذكراك فى فؤادى كالنار فى معبد المجوس !

وأما معنى بيت العقاد الاخير فهو من قول شكرى (جزء ٥ ، ص ٤٦) :

ويا ليت لى عزم القضاء وحوله فتحمد بين الناس منك العزائم

وقال العقاد :

تعلم قلبى كيف ان رغيبة على خطوة تعيى على القدراء

وهو من قول شكرى (الجزء الاول ص ٤٤) :

رضينا بالبعاد وأنت دانى فصرت على بعادك كالأمانى

واذا كان القارىء يرى بعداً كبيراً بين البيتين فانى اذكر له ان العقاد اخذ بيت شكرى الاخير فقال فى قصيدة اخرى (القريب البعيد) بالصفحة ١٥٩ :

بعيد مدى منك القريب المؤمل واقرب منه النازح المتعلل

ولشكرى ايضاً فى المعنى (جزء ١ ، ص ٣٢) :

بعثت عينىَ منها نظرة قربتنى منه حتى بعدا

وقال العقاد من نفس القصيدة :

أردنا لهذا الحسن نفساً محسّةً ولم تدر ان الحسن لونٌ رداء

وهى من قول شكرى (جزء ٧ ص ٣٣) :

قد كنت أحسب كل حسن فطنة تودي بقسوة وحشة الأضداد

فنيت منك بغير ما أملته أسفاً لقلب منك غير جواد

وقال شكرى أيضاً (جزء ٧ ص ١١) ومنها أخذ العقاد تشبيه الحسن بالرداء :

أنسى جمال رداء أنت لابسه حتى كأن لم يكن مال له ثانى

وقال العقاد يستنكر ملامة الاقدار :

وهل تملك الدنيا لنا ما نريده فننصى عليها خلة الخلاء ؟

وهى من قول شكري (الجزء الخامس ص ٤٧) :

علامَ نُرى الدنيا الذي لا تناله ونزجى نفوساً كى تتوق وكى تظما

ولو كان قلب المرء بالعقل حكمه لما زوّد الاقدار مدحا ولا ذمّا

وللعقاد قصيدة (ص ١٤٥) تجدها بمعناها ووزنها وموسيقاها بديوان شكرى (الجزء ٧ ص ١٦) ، ولعل هذا أغرب توارد للخاطر عثرت عليه !

وسأقتصر على مثال وللقارىء الرجوع اليه . ولا يظن أحد أن هذا من باب

المعارضة التى كلف بها أهلُ المدرسة القديمة فان ديوان شكرى طبع قبل ديوان العقاد بما يقرب من عشرين سنة ونفدت طبعته ، وليس من معنى المعارضة أخذ المعنى كما هو . قال العقاد :

صفه لى صفه وما كا ن بمجهول الصفات
أترى أملح من خطرته فى الخطرات ؟
أترى أصبح من خديه بين الوجنات ؟
أترى أعدل من قامته فى الصعدات ؟
ضاحكاً كالصبح يمحو بالضياء الظلمات
صفه فى كل كساء ، صفه فى كل الجهات ؟

وهذا الجزء يقابل قول شكرى من القصيدة :

سألوا : فى أي حال هو أحلا فى الصفات ؟
قلت : أحلا ما تراه فى حديث اللحظات
فاذا أرخى لحاظاً كان أحلا فى السّبات
وهو أحلا منه إن فاه وأحلا فى الصمات
وهو أحلا ماتراه عاطياً باللفتات
واذا صدّ فما أحلاه جهم النظرات
فاذا لان فما أحلاه طلق اللمحات
كلُّ حال منه أشهى حالة فى الحسنات !

فترى أن العقاد لم يزد على المعنى سوى قوله : صفه فى كل كساء ، صفه فى كل الجهات ، فأتلف بذلك ماقصد اليه شكرى من صفة حالات الحبيب المتعلقة بصورة الحسن فيه . وأما العقاد فيذكر الكساء والجهات كأن الحبيب فى كساء غيره فى كساء ، أو هو هنا غيره هناك !

وديوان العقاد عامر بتوارد الخاطر إلى درجة تثير أشد الدهشة : فكل قصيدة غزلية له لها أصل فى ديوان شكرى بتشابه وتشويه يطرحان الخيبة والغم فى قلوب مريدى العقاد . وقد اقتصرتُ هنا على توارد الخاطر فى أبيات أبيات . أما تشابه القصائد بجملتها فقد تركته لضيق المقام ، وقد أفردت لذلك فصولا أقصدها الى دراسة شكرى بقدر مانسمو مداركى الى ذاك الأدب وما يستوعب قلبى من نغمات تلك القيثارة الالهية ؟

رمزى مفتاح

الملكات والشعر

— ١٠ —

كانت الغاية التى نسعى اليها فى بحث الملكة أن الذين لا تقصر ميولهم على الشعر يصابون بتنازع الملكات ، ولا يوفقون فيما يعالجونه من مناحى الشعر ، ولا يبرأ شعرهم من مظاهر الركة أو الجفاف الذى أدى اليه الوهن فى ملكته بتأثير مازاحمها من ملكة الكتابة أو طبيعة من طبائع التفقه فى فرع من أفرع المعارف — ذلك لان الشاعر على ما أزعم لا بد له لأن يكون متأثراً أن يؤثر جانب الحسّ على جانب التعقل ، وأن يصرف نفسه عن عوامل الابهام والتعمق فيما يتناوله فى شعره من ألوان الفكر التى لا يتيسر له أن يكون ظافراً فيها إلا اذا كان لمن يقف لها حظٌّ من التأثر وإيمانٌ بقوة الشاعر فيما صوره من خواطر النفس وأحسّ بعض الاحساس بمشاركة الشاعر له فيما تغلل فى أعماقه من ذلك ، وكان له مصدر إيلام أو برم . أما اذا خاطب العقل كما كان الشأن فى شعر ابى تمام والمعرى فانه لن يحظى بنزوع النفوس اليه ، ولن يكون فى درجة الوجدانى ذيوعاً وتأثيراً ، ولن يكون له حظه من البقاء والخلود. ولذلك أستطيع أن أكون صريحاً فى مخالفة الدكتور طه حسين وأن أذهب الى غير ما ذهب اليه فى المفاضلة بين أبى تمام والبحترى ، إذ لا يرضينا ما يثقلنا ويعنفنا فى شعر أبى تمام من إغراق فى الفكرة ، وغلو فى الدقة ، وفردية فى تصوير الاحساس ، وغرابة فى اعلان الخاطرة ، وسوى ذلك كثير مما يخرج الشعر عن حد اللذة والتلهى به ويجعله أشبه شىء بقوانين الفلسفة ، تحتاج ما تحتاجه من ضبط النفس واستجماع للحس ، دون أن يكون ذلك كفيلا بنجاح الفرد فيما يتلمسه من اللذة فيما يقصد اليه من أثر الشاعر . ولكن البحترى شاعر قبل كل شىء ، وشاعر يصور ما يلذ للعاطفة تصويره ، ولا يقصد الى تكلف فى الاغراق وإغراب فى الاحساس . وهو الى جانب ذلك خفيف الروح ، محبب الى القارىء لسهولة تناوله ولطف مأخذه وان لم يتحلل من غفلة التأثر ولم تبرئه طبيعة عصره من نوازع المجاملة.

وقد أوجبت على الشاعر الناشىء تحصيل الاداة فى التصوير والامتلاء بما ييسر له شرح الخاطر من صور اللفظ فى أساليب الشعر ، ومعرفة ما تحمل عليه الملاءمة

من الاختيار له ليتم اعلان العاطفة النفسية فى صراحة وايضاح . أما أن يظل نافراً من دراسة الصور القديمة فذلك مما يقعد بملكته عن النماء ، وسوف نحسّ دائماً بقلق حين نقرأ الشعر لما نلمح فيه من ظاهرة الركة وعقلة الملاءمة والانسجام اللفظى . وسوف نتأمل شعر اكثرهم فلا نجد فيه لمحة من الافصاح عن مقصد الشاعر وسوف نشيع هذا النوع من الشعر كما نشيع شعر عباس محمود العقاد ببسمة الاشفاق على الشاعر ، لما سلكه من مسالك التعسف والتكلف ، دون أن نرى فى أكثر شعره ما يبرر غروره وادعاءه للتأثر وعمق الاحساس ، وغير ذلك مما يريد ان يكره المتأدبين إكراهاً على الاعتراف به وتصديقه من غير خبرة أو إحساس .

— ١١ —

ولا أريد أن أطيل فى هذا كثيراً فسوف أعود الى صاحبنا فى القريب — ولكننى أحب الآن أن أشير إلى شىء جديد تنمو به ملكة الشعر وتكسبه حظّاً غير قليل من الرقة والطرافة ، وتيسر للشاعر أن يحذق فنوناً من الاغراض قد لا تتم لمن لم ينعم بمثل بيئته فى جمالها ولهوها وفى عظمتها وجلالها — ذلك هو البيئة : تلك البيئة لها أثر فى خلق الشعراء وتكوينهم . فأكثر ما يطبع الشاعر إذا كانت غنية بالمشاهد ومنمية للعاطفة ، وأكثر ما تبدو آثار الجفاف والقحولة إذا كانت البيئة على ذلك النحو فى إمدادها لخيال الشعراء وتلوين الاذواق. ولست فى حاجة لان أسوق أمثلة من شعر البادية لتحقيق مجانسته للبيئة وفقره بتأثيرها من الهيئات المنظمة والعاطفة الخفية بعض الخفاء والنزعة الوجدانية السامية التى لاتتعلق بعالم الحس ولا تستهويها المادة .

العربى ساذج ، ولذلك تراه أكثر ما يكون صريحاً فاذا تغزل لايرضيه إلا أن يفصّل اجزاء المحبوبة ويأتى على وصف كل جزء وتشبيهه بما يزيده جمالا وبهاء . والعربى البدوى لايرضيه إلا ان يعبث بهذا الجمال ، ويمتع نفسه بلقية أو عناق ، وقد يسترسل فى ذلك أحياناً كما ترى فى قصيدة البدوى فى وصف الجميلة :

الوجهُ مثلُ الصبح مبيضٌّ والفرعُ مثلُ الليل مسودُّ
وكأنها وسنى إذا نظرت أو مدنف لمّا يفقْ بعدُ
بفتور عين ما بها رمدٌ وبها تداوَى الاعين الرّمدُ

وتريك عرنيناً به شَمَمٌ وتريك خداً لونه الوردُ
والمعصمان ما يرى لهما من نعمةٍ وبضاضةٍ زندُ
ولها بنان لو أردتَ به عقداً بكفك أمكن العقدُ !

ثم يذكر بعد ذلك ما لا مجال لسرده لوضوح ما فيه من إسراف وعبث . وهكذا كان الشعر العربى فى بيئته الاولى وفى الحياة الاجتماعية التى يغشاها الفساد العام وفى الحياة العقلية التى لا ترجع فى تكوينها إلى أساس محترم . فلما تمّ اختلاط العربى ببعض العناصر الآرية وكان لمدنية الفارسيين أثر كبير فى تهذيبهم أخذ الشعر كما أخذ البدوى بحظ من العذوبة والرقة والاحاطة فى نظر الحياة . وحين قامت دولة للعرب فى الاندلس نعم الشعر العربى ببيئة لم يسبق له بها عهد ، ومهر الشعراء فى باب التصوير الشعرى لتأثير مشاهد البيئة . وعلى كل حال فقد أخذ الشعر فى سائر الاقاليم سبيله الى الرقة والتهذيب وتحمل غير قليل من لواعج النفس الصادقة ، وتحمل كثيراً من زفرات العاطفة .

— ١٢ —

وأىّ شعر أبلغ فى التأثير ، وأنمّ عن اللواعج ، وأدلّ على عمق الاحساس من قول البحترى يندب (الجعفرى) قصر الخليفة المتوكل :

تغير حسنُ الجعفريّ وأنسُهُ وقوّض بادى الجعفريّ وحاضرُهْ
تحمل عنه ساكنوه لجاءةً فعادت سواء دورُه ومقابرُهْ
إذا نحن زرناه أجدّ لنا الاسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائرُهْ
ولم أنس وحشَ القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذرُهْ
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهرُهْ

وهكذا يذوب البحترى أسًى وحسرةً على تلك الدولة البائدة وذلك العز الزائل ، ويأخذ من نفسه ما صار اليه القصر من وحشة عميقة ، ورهبة موحشة ، وحياة قد أقفرت من مظاهر اللهو والمرح ، وفنون العبث التى تحفل بها القصور والشرفات .

هكذا كان شأن الشعراء الذين تهيأ لهم نوع من البيئات المدنية ، حتى من تكلف الحكمة منهم قد وقع له كثير من الشعر هو صورة النفس ولمحة الخاطر .

قال المتنبي :

وكيف التذاذى بالاصائل والضحى ... إذا لم يعد ذاك النسيم الذى هَبَّا ؟!
ذكرتُ به وصلا كأن لم أفز به ... وعيشاً كأنى كنت أقطعه وَثْبَا
وفتانةِ العنيْن قتالة الهوى ... إذا نفحت شيحاً روائحها شبَّا !
فيا شوقُ ما أبقى ، ويا لى من النوى ... ويادمعُ ما أجرى ، ويا قلب ما أصبى !

وأىّ نفس أشد اكتئاباً كنفس ابن الرومى فى رثائه لولده ؟ وأى دمع أكثر غزارة من دمعه ؟ وأى أب رحيم ينفطر انفطاره ويتحرك أسى ويذوب أسفاً كما كان هذا الشاعر بعد فقد ذلك الابن ؟ إنك لتراه يندب الأمل المحطم بموته ، ويعجب لقلبه كيف لم ينفطر على أثره ، ولعينه كيف لم ترو قبره بدمعها المنهمر . قال ابن الرومى :

ألا قاتل اللهُ المنايا ورميها ... من القوم حبات القلوب على عَمْد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطةَ العقدِ
لعمرى لقد حالت بى الحالُ بعده ... فياليت شعرى كيف حالت به بَعْدِى
فقدت سرورى كله إذ فقدته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخا زُهْدِ
سأسقيك ماة العين ما أسعدت به ... وإن كانت السقيا من العين لا تُجدِى
عجبتُ لقلبى كيف لم ينفطر له ... ولو انّه اقسى من الحجر الصَّلْدِ

إذن فليس هناك مايحمل على الشك فى أن ما سقناه من شعر من نبتوا فى غير البيئة البدوية يدلنا على تأثير البيئة فى الاقدار على الرقة وفى تهذيب الملكة وحدة الخاطر وصدق الاحساس ، وذلك ما نريد ان نقرره فى هذا الحديث .

وقد اقرأ فى (اشعة وظلال) ـ وهو ديوان حديث من الشعر المبتكر للدكتور ابى شادى ـ وقد أعثر على قطعة من الشعر قام بترجمتها الدكتور وهى للشاعر الانجليزى جيمس رسل لويل فى موضوع « التجديد والزمن » ، وهى وما يماثلها مما تنبىء بنزعة الغربيين فى التطور وعدم التقيد بما دان به الأسلاف إذا لم يثبت صلاحه — فى حين أن الشاعر العربى مولع بذكرى الماضى ، وشديد

التعلق به ، والحنين عليه ، وموالع باحترام تقاليد الاسلاف ، وموروثات الماضين وإن كانت خباء وناقة ، أو رسماً وطللا !

أريد أن أقول إن ملكة الشعر ترقى برقى البيئة اذا كان الشاعر متأثراً متصلا بها اتصالا قوياً غير سالك مسالك التقليد ولا مدفوعاً بدافع المجاملة . وقد يساعد فى ذلك أيضاً ماخصّ به الأديب من حسن الذوق ، وما وهبته الطبيعة من حسن التصرف ودقة الاحساس وقوة الملاحظة وسائر المعنويات الموهوبة التى تثبت انتفاعه بما يلمح أو يسمع أو يقرأ ، أو ما يحسه فى أعماق ومكنون فؤاده فيتجلى شعره ـ لما وهبه ـ صورة لكل نفس وشبحاً لكل احساس ، ورسماً لكل عاطفة ، وطيفاً لكل خاطر ، ومتى وصل الفرد الى ذلك صح له أن يحمل لواء الشعر وألاّ يوسم بسمة الناظمين .

وبعد أن فرغت مسألة الملكة وتقويمها لا يسعنى الا أن أشكر أسرة (أبولو) ، وآمل أن أكون على صلة بها بما أتناوله بعد من دراسة الشعراء .

محمد قنابيل

ميلاد الشاعر السجين

جبرائيل دانزيو

(لمناسبة الاحتفال فى ايطاليا ببلوغه سن السبعين فى السابع من الشهر الماضى)

يتطلع اليوم الكثيرون من أحفاد وسلالة قيصر الى أفق السياسة الايطالية يفتشون بعيونهم الرومانية الدعجاء عن «جبرائيل دانزيو» معبود الشعب الذي